إيران الخفيّة
Hidden Iran

راي تقية
Ray Takeyh

مراجعة: محمود عبده-Reviewed by Mahmoud Abdu

يتناول الكتاب "فهم الإدارات الأمريكية المتعاقبة الخاطئ لإيران" منذ الثورة الإيرانية وحتى عهد الرئيس الأمريكي السابق جورج بوش، والحاجة إلى إزالة ذلك الفهم من خلال تأمل النظام الإيراني وفهمه على نحو صحيح... وهو ما يؤكده المؤلف في المقدمة.

يوضح المؤلف في الفصل الأول الذي يحمل عنوان (إرث الخميني) دور الخميني في قيادة إيران ما بعد الثورة، وفي تشكيل نظامها، ورؤيته وخطته. ولذلك يعود المؤلف إلى الجذور الفكرية للخميني منذ أن كان شابًّا، ويوضح كيف احتلت فكرة "العدالة" موقعًا جوهريًّا في فكره، وكيف اختلف مع المؤسسة الدينية في إيران وهو شاب، رافضًا ابتعادها عن التعاطي مع السياسة والشؤون العامة في البلاد، وكيف دعا في أحد كتبه في الأربعينيات صراحة إلى تقييد سلطات الملكية في البلاد، وانتقد ضمنيًّا تحالف رجال الدين معها، في الوقت نفسه الذي انتقد فيه فكرة فصل الدين عن السياسة، وهي الفكرة السائدة لدى المرجعيات الشيعية التقليدية آنذاك، ويذكر المؤلف كيف اتجه الخميني إلى دراسة الفلسفة والفكر الصوفي، وتأثر بالفكر اليساري فيما يخص طبيعة المجتمع الدولي القائمة على الهيمنة الرأسمالية والإمبريالية العالمية، وعلى الظلم ونهب ثروات الشعوب الضعيفة، وكيف اتخذ الخميني من الإمبريالية ومن الغرب المعادي للحضارة الإسلامية موقفًا فكريًّا متشددًا، وكيف تجلى ذلك في مواقفه في الخمسينيات والستينيات، رافضًا النفوذ الأمريكي والأجنبي عمومًا في بلاده. ويوضح الفصل أيضًا تأثر الخميني بالمفكر الإيراني علي شريعتي، واستلهامه آراءه الحداثية في خطابه، بعد أن لاحظ تأثر الشباب الإيراني بذلك المفكر.

كذلك يوضح هذا الفصل كيف رأى الخميني أن أفضل الطرق لتدعيم نظامه داخليًّا هو تصدير الثورة الإسلامية، ومواصلة سياسة المواجهة مع الولايات المتحدة؛ لأنه لو انغلقت الجمهورية الإسلامية على ذاتها، وانصرفت إلى التركيز على شؤونها الداخلية، لضعفت ثم انهارت في نهاية المطاف. ولم يكتف الرجل بمهاجمة الغرب وحده، بل أدان الدول العربية والإسلامية المتعاونة مع الولايات المتحدة، ودعا الشعوب العربية والإسلامية إلى استلهام النموذج الإيراني، والإطاحة بحكامها الموالين للغرب، ومزج الخميني في ذكاء وانتهازية -كما يرى الكتاب- بين العقيدة الدينية التي رآها تشمل صور الحياة كافة، وبين التطلعات القومية الفارسية، وتطلعات وقضايا الطبقة الوسطى من الطلاب والحرفيين والتجار.

ويوضح الفصل كذلك كيف أقصى الخميني التيارات الليبرالية والماركسية عقب نجاح الثورة، وكيف فرض أفكاره على النظام والثورة، وابتدع مفهوم "ولاية الفقيه"، وجعل لمعسكره السياسي الهيمنة على وضع أول دستور "إسلامي للبلاد"، وكيف خلق نخبة سياسية جديدة تضم رجال الدين والعلمانيين المخلصين

للإسلام، وفي هذا السياق يذكر المؤلف حدثين أسهما في تقوية مركز الخميني داخليًّا، وساعداه في إحكام هيمنة نظامه الإسلامي على البلاد، وهما: حدث اقتحام السفارة الأمريكية في طهران في نوفمبر من عام 1979، وحدث الحرب العراقية الإيرانية التي نشبت في أواخر عام 1980م.

ويتناول المؤلف في الفصل الثاني أقطاب النظام السياسي الإيراني الثلاثة -وهم: المحافظون، والبراغماتيون، والإصلاحيون- والتنافس فيما بينهم على قيادة النظام الإيراني بعد وفاة الخميني في يونيو 1989م، وكيف حاول الإصلاحيون إفلات النظام من قبضة المحافظين الذين ينتمي إليهم المرشد الأعلى للجمهورية الإسلامية علي خامنئي، وكيف حاول البراغماتيون التوجه نحو الاقتصاد، وتقديم المصالح الاقتصادية للبلاد، ويلفت المؤلف النظر إلى أن الأجيال الصغرى من المحافظين أكثر تشددًا من القيادات الأكبر سنًّا، ويرفضون الفساد الذي ضرب مؤسسات الدولة، وهم أكثر دعوة لفرض تعليمات الإسلام على المجتمع، كما يرونها، ويعتنقون أيديولوجيا ترى الغاية الأساسية للدولة هي تحقيق غاية الله على الأرض، بحيث يقتضي أن يتولى الحكم رجال الدين، أو علمانيون مخلصون للإسلام، ويرفض هؤلاء التقاليد الشيعية التي تؤكد ابتعاد رجال الدين عن السياسة، والانصراف إلى دراساتهم الدينية، ويزدري هؤلاء المحافظون مبدأ المحاسبة الديمقراطية، والحكم التعددي، ويرون أن في الاستبداد طاعة للإرادة الإلهية التي يعبر عنها رجال الدين.

وفي المجال السياسي لا يقل المحافظون يمينية عن توجههم السياسي، وهم ينحازون إلى طبقة التجار التي يؤيدهم كثير من المنتمين إليها، ويؤكدون بشدة حق الملكية الخاصة، وهنا تكمن المفارقة، فالرؤية الاقتصادية اليمينية التي يتبناها المحافظون تتناقض مع رفعهم شعارات المساواة الاقتصادية، وإنصاف المعدمين.

ويُعدّ المحافظون من الفئات القليلة المستفيدة من الوضع الاقتصادي الإيراني، فهم يركنون إلى المؤسسات الدينية الضخمة المسماة "البونياد" التي صادرت ممتلكات النظام السابق لأغراض خيرية، وتحولت إلى شركات ضخمة تهيمن على التجارة والصناعات الرئيسة.

أما البراغماتيون فهم تيار لديه مزيج من الواقعية والمصلحة الذاتية يدفعه لاتباع سياسات ثقافية واقتصادية مناقضة للمعتقدات التقليدية الراسخة، وهم يرون أن استمرار النظام مرهون بالإنجازات الاقتصادية التي تتطلب براغماتية في التعاطي السياسي والاقتصادي، وقد وضعوا النموذج الصيني نصب أعينهم آملين، في صياغة نظام جديد، كفء اقتصاديًّا متسامح ثقافيًّا ومستبد سياسيًّا، فلم تكن غايتهم إقامة حكم ديمقراطي؛ بل بناء مجتمع مستقر يلبّي حاجات مواطنيه الاقتصادية.

وفي المناحي الثقافية سعى البراغماتيون إلى تجنب الفرض القسري لتعاليم الإسلام على الشباب الإيراني، ليس من منطلق ليبرالي، بل من أجل الاستقرار الذي يقلل من التوترات، وفي الوقت نفسه يظهر البراغماتيون ولاءهم لمؤسسات الجمهورية الإسلامية الرئيسة، ويرفضون مفاهيم معينة ترفضها تلك المؤسسات، كالمساواة بين الجنسين والتحرر الجنسي، ومن منطلق ديني يرى البراغماتيون أن التخفيف من القيود الثقافية وتوفير قدر من الحرية الاجتماعية يمكن أن يشكلا صمام أمان للشباب الإيراني.

ويخلص الفصل إلى عجز البراغماتيين عن تحقيق أهدافهم الاقتصادية والسياسية والثقافية في مواجهة التيار المحافظ.

أما التيار الثالث، التيار الإصلاحي، فتألف من تحالف واسع من المفكرين المعارضين، ورجال الدين الليبراليين، وحرفيي الطبقة الوسطى، والطلاب المقموعين. وقد تمثل التحدي بالنسبة للإصلاحيين في

التوفيق بين الحفاظ على الإسلام وتعاليمه وبين التحرك في اتجاه الديمقراطية والتحديث السياسي، ولم يروا تناقضا جوهريًّا بين المطلبين من حيث المبدأ أو التطبيق.

استندت أيديولوجية الإصلاحيين بشكل رئيس إلى ضرورة التغيير في تأويل النص القرآني وفق الظروف الإنسانية المتغيرة، وأنه يتعين على الخطاب الإسلامي أن يراعي متطلبات المجتمع العصري.

ويرى المؤلف في الفصل الثالث تحت عنوان "موقع إيران في الشرق الأوسط الكبير"- أن إيران في سياساتها الإقليمية تحاول أن تواكب بين أيديولوجيتها الدينية الثورية ومصالحها القومية، وأن سياسة إيران الإقليمية تقوم على ثلاثة محاور، هي: الخليج العربي، والمشرق العربي، وأوراسيا، وأن الخليج العربي يتبوأ الأهمية الكبرى في تلك السياسة، ويرى المؤلف أن العوامل الجغرافية والمصالح دفعت إيران إلى الاعتدال في توجهاتها الأيديولوجية، وجعلتها تدرك الحاجة إلى استقرار الخليج العربي، لأن نفط إيران يُصدَّر بكمّ هائل عبر تلك المنطقة الحيوية، لذا توقفت الحملات الأيديولوجية على دول الخليج، وقبلت إيران الوضع القائم هناك، كذلك أدرك النظام الإيراني عبثية معاداة الروس، جيرانهم الأقوياء، فلم يعمل الإيرانيون على إثارة المشاعر الدينية في جمهوريات الاتحاد السوفيتي السابق، وتعاملوا مع الروس ببراغماتية واعتدال، وقد تبدى ذلك في تجاهل الإيرانيين لكفاح الشعب الشيشاني المسلم، حفاظا على المصالح مع روسيا.

ويرى المؤلف كذلك أن مقومات السلوك الإيراني تجاه العالم الخارجي تقوم على امتزاج الحس القومي والفخر بالتاريخ الفارسي الذي صنع إمبراطوريات تاريخية، وبين حس انعدام الأمن نتيجة الغزو المتواصل من القوى الأخرى، عبر التاريخ.

ويرى المؤلف أيضًا أن الجمهورية الإسلامية سعت لدى صياغتها سياساتها الإقليمية إلى المزاوجة بين جانبين متباينين للهوية الإيرانية، هما: القومية الفارسية والمذهب الشيعي، ويبيّن كيف تعدّ إيران نفسها الأحق بقيادة الشرق الأوسط بالنظر إلى حضارتها العظيمة وإحساسها العميق بالتاريخ.

وفي الفصل الرابع تحت عنوان "منعطفات في العلاقات الأمريكية الإيرانية"، يرى المؤلف أن العلاقات بين الولايات المتحدة وإيران علاقات متداخلة مرت بسلسلة من المنعطفات والأحداث الفاصلة ذات الأثر المتواصل، مثل الإطاحة الأمريكية في الخمسينيات برئيس الوزراء الإيراني الإصلاحي محمد مصدّق، لصالح حكم الشاه، ثم قيام الثورة الإيرانية ونجاحها في الإطاحة بالشاه عام 1979، ومحاصرة الطلاب الإيرانيين للسفارة الأمريكية في طهران في تلك الفترة طوال 444 يومًا متواصلة، ثم كيف تحولت علاقات التحالف بين الولايات المتحدة وإيران الشاه، إلى علاقة عداء بعد الإطاحة بالشاه، رغم أن البراغماتية الإيرانية لم تمنع التعاون في مجال التسليح بين البلدين خلال الحرب العراقية الإيرانية في ثمانينيات القرن الماضي، ويلفت الكتاب الأنظار إلى مفارقة في هذا الصدد، وهي أن علاقات العداء بين البلدين كثيرًا ما تخفي المدى الذي تتوافق به غاياتهما الإستراتيجية في المنطقة، مثل المصلحة المشترك بينهما في الحفاظ على استقرار أفغانستان والخليج العربي، ومقارعة التطرف السني.

أما الفصل الخامس وعنوانه "في ظلال الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر" فيتناول أحداث الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول وتأثيرها في العلاقات الأمريكية الإيرانية، مشيرًا إلى أن صورة إيران لم تتغير لدى المحافظين الجدد الذين حكمت توجهاتهم الولايات المتحدة في عهد الرئيس الأمريكي الأسبق جورج بوش الابن، فتغاضى المحافظون الجدد عن محاولات إيران التقرب من الولايات المتحدة في أعقاب الحادي عشر من سبتمبر، خدمة لإستراتيجية المحافظين الجدد للإطاحة بالأنظمة اللاتمثيلية في الشرق الأوسط،

وأغلق بوش الأبواب بقوة أمام فتح صفحة جديدة في العلاقات الأمريكية الإيرانية في خطابه عن حالة الاتحاد في عام 2002، حين صنف إيران ضمن دول محور الشر بجانب العراق وكوريا الشمالية، ووصفها بأنها "داعم للإرهاب"، ووصف نظامها بأنه يقمع شعبه. وقد جاء الرد الإيراني تصعيديًّا غير مهادن.

وفي الفصل السادس "على شفير الهاوية النووية" يتناول المؤلف مسألة الملف النووي الإيراني والموقف الغربي منه، والجدل الإيراني الداخلي حول امتلاك الأسلحة النووية، ودوافع النظام الإيراني لامتلاك تلك الأسلحة، وكيف بدأ البرنامج النووي الإيراني في عهد الشاه، واستأنفه الإيرانيون بعد انتهاء الحرب مع العراق، ويرى المؤلف أن سعي إيران إلى امتلاك القوة النووية ينبع من محاولة ذكية لامتلاك قوة رادعة حقيقية أمام سلسلة من التهديدات، فقد أراد النظام الإيراني مواجهة الخطر التاريخي المتمثل في الويلات المتحدة والعراق، كما أن وجود باكستان النووية بجوار إيران زاد من تحمسها لامتلاك القوة النووية. ويلفت الفصل النظر إلى الجدال داخل إيران بشأن امتلاك القوة النووية، ففيما يرى الرجعيون أهمية القوة النووية في الصراع الحتمي مع الولايات المتحدة، للحد من طموحاتها في المنطقة، يرى آخرون ضرورة القبول بقيود معينة على البرنامج النووي الإيراني من أجل اندماج إيران في النظام الدولي والاقتصاد العالمي.

وفي الفصل السابع وتحت عنوان "عراق إيران الجديد" يتناول المؤلف العلاقة المعقدة بين إيران والعراق، عراق صدام العدو المحارب لإيران، وعراق ما بعد صدام بأغلبيته الشيعية المتحالفة مع إيران، ويشير المؤلف إلى أن أولوية إيران الكبرى هي منع العراق من البروز مجددًا بحيث يشكّل تهديدًا عسكريًّا أو أيديولوجيًّا، وتهدف الإستراتيجية الإيرانية إلى تمكين نظام شيعي في العراق، كذلك يحرص حكام إيران على وحدة العراق وسلامة أراضيه، ويخشون من وقوع حرب أهلية تقسم البلاد، كذلك رأت إيران في الوجود الأمريكي في العراق تهديدًا كبيرًا، ورأت أن استقرار العراق أنسب السبل لإنهاء الاحتلال الأمريكي.

ويلتفت الفصل إلى مفارقة، تتمثل في أن الديمقراطية في العراق تخدم الإستراتيجية الإيرانية، لذا نجد رجال الدين الإيرانيين المتشددين في الإصلاح الديمقراطي داخل بلادهم، يدافعون بقوة عن التعددية الديمقراطية في العراق، فهم يرون أن دفع مصالحهم في العراق يتم في عملية انتخابية تهدف إلى إقامة دولة ذات أقاليم قوية، ونظام فيدرالي ضعيف، يمكّن الشيعة، ويحتوي طموحات الأكراد، ويهمش خصوم إيران من السنة.

وفي الفصل الأخير "إسرائيل وسياسة الإرهاب" يتناول الكاتب علاقة إيران بإسرائيل، وبفصائل المقاومة الفلسطينية واللبنانية، ويرى أن القضية الفلسطينية والعداء للصهيونية كانا مدخلًا لإيران لتخفف عزلتها في الشرق العربي المسلم، وهو ما جعلها تنشئ علاقة حميمة مع النظام السوري العلماني على أرضية العداء لإسرائيل، وهو ما مكن إيران أيضًا من التدخل في الساحة اللبنانية عبر دعم "حزب الله" بوصفه تنظيمًا مقاومًا للعدو الصهيوني.

وفي الخاتمة يتناول المؤلف الفهم الصحيح لإيران، مشيرًا إلى أن النظام الإيراني الثيوقراطي سيصمد بالرغم من تناقضاته وصراعاته الداخلية، على النقيض من الافتراض القائم في واشنطن بأن الجمهورية الإسلامية بلد ضعيف يمكن أن ينهار بسهولة جراء الضغوط الأمريكية المتواصلة، إذ تضمن مرونة ولا مركزية نظام إيران الإسلامي استمرار نخبته الحاكمة واستبقاء أنصاره الغيورين.